إشكالية الموريسكيين الأندلسيين وتهجيرهم في الذكرى المئوية الرابعة

د. ميلود طواهري
جامعة تلمسان

تضارب الآراء من القرن 17 **إلى القرن** 20 :

بمناسبة الندوة الدولية المنعقدة في تونس تخليدا لهذه الذكرى (20-23 مايو 2009)، عنونت إحدى المتدخلات ورقتها بـ: "إبعاد المورسكيين في مرآة الزمن" [1]، حيث أحصت المواقف المختلفة المتضاربة خلال القرون الأربعة التي تفصلنا عن الإخلاء، إذ كان هذا التدبير المجحف موضوعا للجدل منذ البداية، حيث ساهم فيه المنفيون أنفسهم. وفي مقال حديث العهد كتبه "أوغستان ريداندو" [2] Augustin Redondo بناء على تحليل الوقائع في الفترة 1609-1624، والذي يعتمد فيه على المصادر الحديثة التي كشفها، والتي تخص النظرة المزدوجة حول الإبعاد في العقود الأولى، التي عقبت الحدث، الذي يعبِّر فيه الخطاب السائد آنذاك عن الكراهية والإقصاء اتجاه هؤلاء المنفيين، بينما، ومن منظور مختلف، ترى أقلية من المجتمع في طرد المورسكيين تدبيرا ظالما، نتيجة خطأ سياسي جسيم.

أما العمل الأدبي الصادر مؤخرا، للكاتب "خوان ريبول" Juan Ripol ، ذا الأصول أراغونية والذي عاش في أوائل القرن السابع عشر، والمعنون *Diálogo de consuelo por la expulsión de los moriscos de España* (1613)[3] ، يتميز على وجه التحديد بالمقارنة بين الرأيين في مسألة الطرد، إذ يقدم في شكل أدبي حوارا بين مؤيدي الملكية وخصمهم المتأسف للمصير الذي آل إليه المورسكيون. ففي أقوال "سيرابيون" Serapión المعارض لعملية الترحيل، يعرض " جوان ريبول" حججا يدعم بهاحلا آخر، ومنتقدا بالمناسبة عدم جدوى سياسة التبشير وما أفرزته من عواقب اقتصادية وخيمة. وقد استمرت هذه الرؤية المزدوجة حول الطرد إلى غاية أوائل القرن العشرين، فكانت الغلبة لوجهة نظر المحافظين على التيار الآخر الأكثر ليبرالية[4]. بداية من سنوات الخمسينات، يزعم المؤرخون أخيرا السعي وراء الموضوعية بالاعتماد على وثائق الأرشيف، مثل " هانري لابير" Henri LAPEYRE الذي يحصي أعداد المرحلين في كتابه *Géographie de l'Espagne morisque* [5] في الأخير ختمت الباحثة السالفة الذكر عرضها بالقول إن وجهات النظر حول الطرد في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، أخذت منعرجا نوعيا جديدا بناء على الأعمال الأخيرة التي صدرت حديثا في الموضوع.

تعدد الكتب والمنشورات :

الواقع أننا نشهد حاليا صدور كمية كبيرة من الوثائق والمنشورات بشأن المورسكيين، من مجلات، ومقالات، ومحاولات، وخاصة الكتب، وهذا الإنتاج الكبير ليس سوى تجديد وتوسيع لما كان لدينا من رؤية حول المورسكيين، والكثير من هذه الأعمال تؤكد على ظروف الإبعاد.

كتابات عن مختلف الطوائف الموريسكية حسب الموطن :

تعيد الفئة الأولى من الكتب الصادرة مؤخرا تسليط الضوء على مواطن المورسكيين، في توضيح لعبارة "فرناند بروديل" Fernand Braudel الشهيرة التي يقول فيها « لا توجد مشكلة واحدة ولكن توجد مشاكل موريسكية »، إذ أكد المؤرخ على تنوع المسألة المورسكية بحسب المناطق، فالعديد من هذه الكتب تؤكد على خصوصية إقامة المورسكيين في منطقة معينة. بالنسبة لمنطقة أراغون، يمتاز كتاب "مانويل كورتيز لوماس" Manuel Lomas Cortés المعنون *La expulsión de los moriscos del Reino de Aragón. Política y administración de una deportación*[6] بكونه يسد فراغا في الدراسات، بحيث يبين لنا أن الإبعاد في هذه المنطقة كان مسارا معقدا جدا، وأنه لا يقتصر على الأحداث التي وقعت خلال صائفة عام 1610، وهي وقائع شديدة الارتباط بمختلف مشاريع وأولويات المَلَكِية، تناولها الكاتب من حيث آثارها المختلفة. كما يرى ذات الكاتب أن رحيل الموريسكيين كان بطريقة سلمية للغاية، وذلك رغم تخوف النظام الملكي. في النهاية، يعالج هذا المؤرخ أثار العملية، بالخصوص، على منطقة آراغون، إذ بسبب طرد المغاربة، شهد النبلاء تراجع قدرتهم الاقتصادية، فهُجرت الأراضي، وانخفضت الكثافة السكانية في المناطق الريفية، وتراجعت إيجارات المزارع، وبالتالي تدنى الإنتاج، وأدى ذلك إلى أزمة اقتصادية كبيرة .

أما في فالنسيا، وقشتالة الجديدة، وغرناطة، فقد جرى الطرد في ظل ظروف مختلفة جدا ذكرتها كتب عديدة. بالنسبة لفالنسيا، أسهبت المنشورات الحديثة في الموضوع مثلما ورد في العمل الجماعي المعنون *La expulsión de los moriscos, Un conflicto nacional. Moriscos y cristianos viejos en Valencia* الصادر سنة 1997 ، وبالمناسبة صدر من جديد كتاب مرجعي "توليو هلبيرين دونغي" Tulio Halperin Donghi (1980)[8]. فيما يتعلق بغرناطا، يبقى الكِتاب المَعْلَم، الذي صدر من جديد مع بعض الإضافات، كتاب "مانويل باريوس أغيليرا" المعنون *La convivencia negada. Historia de los moriscos del Reino de Granada*[9] ، ويُعتبر الكاتب خبيرا بارزا في "البلاد" ، في تاريخ الأرض الأندلسية، والمزيج الثقافي الذي يميزها، فمن من غيره قادر على كتابة مؤَلَف مماثل عن "التعايش المرفوض". يُنظر للإبعاد، وهو موضوع الجزء الثالث من الكتاب، في علاقته بالواقع المعاش، عن تجربة الطائفة الموريسكية على الأراضي الغرناطية.

هناك عمل آخر أكثر وزنا (1328 صفحة) للكاتب "تريفور جون دادسن" Trevor J. Dadson، أستاذ بجامعة لندن، عنوانه *Los moriscos de Villarubia de los Ojos (siglos XV-XVIII). Historia de una*

minoría asimilada, expulsada y reintegrada [10]، ومرد أهمية هذا الكتاب في مونه يخبرنا عن تاريخ طائفة موريسكية على المدى الطويل، وهي المرة الأولى التي يُكتَب فيها، وبصفة مفصلة تاريخ طائفة موريسكية اندمجت في الثقافة الكاثوليكية. وبفضل صراحتهم صمد هؤلاء الموريسكيون من منطقة المانشا بعض الوقت أمام محاولة الإبعاد والمكوث في فيلاروبيا. وتبقى هذه المونوغرافيا مهمة جدا لما تحتويه من معلومات حول ظروف الموريسكيين في قشتالة، فهم بالنسبة لبني جلدتهم في مناطق أخرى أكثر ارتباطا بأراضيهم، وأكثر اندماجا وتجذرا، وأقل نزاعا مع المسيحيين القدامى . وهنا نلاحظ جوانب اسثنائية للإبعاد إذ تمكن البعض من البقاء، ومنهم من عاد ثانية كما كان الحال مع موريسكي "كامبو دي كالاترافا" Campo de Calatrava. من الكتب الأخرى حول الموركسيين في منطقة "المانشا"، ولكن بإشكالية متباينة جدا، تركز على دراسة الطائفة نفسها، نذكر كتاب "فرانسيسكو ج. مورينا دياز" Francisco J. Morena Díaz ، عنوانه *Los moriscos de la Mancha. Sociedad, economía y modos de vida de una minoría en la Castilla moderna* [11]

أعمال في إشكاليات موريسكية مختلفة :

صدرت غداة الاحتفال بهذه الذكرى، عدة كتب اصبحت بلا شك من الكلاسيكيات في دراسة الموريسكيين، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تلك التي تعرض بعض جوانب تَديُنهم وثقافتهم.

من هذه الكتب نذكر ذلك المعنون *?La historia inventada ? Los libros plúmbeos y el legado sacromontano* [12] الصادر عن دار *El legado andalusí* (الإرث الأندلسي) سنة 2008، الذي تناول مبحث كتب الرصاص في جبل غرناطة المقدس متعاملا معها بطريقة علمية، من جوانب متعددة ومتكاملة، سواء من الناحية الفيلولوجية أو من الناحية التاريخية والفنية أو الأنثروبولوجية. أما مؤلِفا الكتاب فهما من ابرز من اختص في موضوع الموركسيين، وهما "مانويل باريوس أغيليرا" Manuel Barrios Aguilera و "مرسيدس غارسيا أرينال" Mercedes García Arenal.

نود أن نشير أيضا إلى ما نشرته مؤخرا (مايو 2009) الباحثة في الأدب "الخاميادا" aljamiada[13] ، التي ألفت العديد من الكتب، وأكثر من مِئاتي مقال "لوسي لوبيز بارالت" Luce López Baralt، مؤسسة ومديرة مدرسة بورتو ريكو، والتي ساهمت في تكوين عشرات الطلاب وتدريبهم، فساهموا بدورهم في التعريف بمخطوطات "ألخاميادوس" التي درسوها في المركز المذكور. والكتاب عنوانه *La literatura secreta de los últimos musulmanes de España* [14] ، الذي يمكن اعتباره عصارة أعمالها، يسمح لنا بالولوج، من خلال نصوص "الخميادوس" ، في سريرة حياة الموركسيين، والسماع في مناجاة مطولة، لصوت أولائك الكتاب السريين الذي لطالما اضطهدوا.

في الأخير لا يمكننا اختتام هذا العرض حول أهم الأعمال المنشورة حول المناسبة دون الإشارة إلى وجود مجموعة مخصصة حصرا للدراسات الموريسكية تحت رعاية ثلاث جامعات، وهي جامعات فالنسيا، وغرناطة، وسرقسطة، والموسومة

Biblioteca de Estudios Moriscos، ومن أهدافها كما يوحي بذلك اسمها، إعادة إصدار الدراسات الهامة التي استنفدت اعدادها، ونشر نصوص المختصين حول الموضوع الموريسكي . وقد ظهرت من هذه المجموعة أربعة مجلدات وهي [15] "مانويل باريوس أغيليرا" Manuel Barrios Aguilera و "مرسيدس غارسيا أرينال" Mercedes García Arenal ، *Los plomos del Sacramonte. Invención y tesoro* و"بيرنار فنسان" Bernard Vincent *El río morisco* و "منويل دانفيلا كولادو" *La expulsión de los moriscos españoles* ، و "توليو هالبرين دونجوي" Tulio Halperin Dongui *Un conflicto nacional : moriscos y cristianos viejos en Valencia*

نظرتان متميزتان عن الموريسكيين وإبعادهم :

في وقت نحتفل فيه بذكرى طرد الموريسكيين، تظهر جلية، من خلال كل ما صدر من أعمال، نظرة جديدة حول الموريسكيين وطردهم، غير أن وصفها "بالجديدة" لا يعني أن هذه الرؤية جاءت من العدم، إنما معناه أن المؤرخين يفضلون محاور تأويل معينة يوسعونها اعتمادا على وثائق واستدلالات جديدة.

النظرة الملتزمة بالقضية :

إن المتطرقين لموضوع الموريسكيين يشعرون بالالتزام اتجاه هذه المسألة، وذلك على مستويات مختلفة. لم يكن هذا الاهتمام طيلة قرون سوى معالجة أحد فصول تاريخ اسبانيا، فكان ذلك، من وجهة النظر المحافظة اهتمام بأقلية أبت أن تندمج، بل اعتبرتها خطرا على الدولة، فأصبحت تمثل عدوها الداخلي، أو ما يسمى الطابور الخامس، وبالتالي كان لزاما طردها بسبب خيانتها وعدم قدرتها على الاندماج في المجتمع. في القرن العشرين وبصفة تدريجية، لم يعد التعامل مع تاريخ هذه الأقلية بطريقة موضوعية فحسب، بل أصبح أيضا يتعامل بنوع من التعاطف. في هذا الصدد نذكِّر أنه في عام 1978، وضع "أنطونيو دومينغيز أورتيز" Antonio Domínguez Ortiz و "برنار فانسان" Bernard Vincent العنوان الفرعي لكتابهما *Histoire des Morisques* (تاريخ المورسكيين) : *« Vie et tragédie d'une minorité »* "حياة ومأساة أقلية" [16]

منذ ذلك الحين، عبّر الكُتاب عن تعاطفهم مع الموريسكيين بتسليطهم الضوء على ما عنوه من مأساة تمثل أولى محاولات "التطهير العرقي" في أوروبا، إذ وبصفة تدريجيا، التزم المؤرخون اتجاه هذه الأقلية، محاولين بالمناسبة فهم أحداث الماضي، فتنبهوا إلى أن التاريخ لا يتعامل مع وقائع باردة وموضوعية يمكن تحليلها، ولكن يوجد من ورائها أشخاص من لحم ودم، لهم وجوه وأسماء. فالموريسكيون أكبر من أن يكونوا جزء من إحصاءات، أو مجرد أرقام، بل هم أناس عانوا من مآسي شخصية وجماعية. على هذا الأساس جدد المؤرخون اليوم هذا الموضوع، متبعين ما نصحهم به "أنطونيو أورتيز دومينغيز" منذ سنوات في قوله « رغم علمنا بالمخطط العام لعملية الطرد، إلا أنه لا يزال هناك كثير من البحث يتعين إنجازه على المستوى المحلي من خلال مضاعفة الدراسات المونغرافية لمناقشة الأشكال التي اتخذتها العملية في كل قرية، إذ التناقضات كبيرة » [17].

خير مثال على هذه التاريخ الجزئي المطلوب كتاب "تريفور دادسون" Trevor J. Dadson ، الذي تحدثنا عنه سابقا، حول المورسكيون في فيلاروبيا دي لوس أوجوس Villarubia de los Ojos في منطقة المانش، وهو عبارة عن مونوغرافيا تقدم لنا رؤية أوضح عن المورسكيين في إحدى القرى، وعن علاقاتهم بالسلطة المركزية والوطنية، وتعرِف لنا في الوقت نفسه بعض الوجهاء من السلطات المحلية، المدافعين عنهم. تتصل كل هذه الدراسات في التاريخ الجزئي مع دراسات أخرى في التاريخ الكلي، يطلب مؤلفوها بنفس الطريقة من المؤرخ التوفيق بين رأيه العام عن الموريسكيين ورأيه عن طردهم، كما فعل "رافائيل كاراسكو" Raphaël Carrasco الذي نشر مؤخرا في برشلونة في أبريل 2009، كتابا موجزا ممتازا عنوانه *Deportados en nombre de Dios. La expulsión de los moriscos : cuarto centenario de una ignominia*[18]

عنوان الكتاب (المرحلين باسم الرب. طرد الموريسكيين: عار في ذكراه المئوية الرابعة) واضح بما فيه الكفاية للتعبير عن وجهة نظر الكاتب الملتزم بالقضية، وبالطريقة نفسها كما نجدها في الجملة المأخوذة من الفقرة الأخيرة من الكتاب، وتبين بوضوح نظرته للمجتمع الموريسكي في قوله: « كان الطرد عقوبة على التمرد، والعصيان المسلح والتشبث بالماضي »[19] في هذه الفئة من المؤلفين الملتزمين ينبغي ذكر المؤرخ "فرانسيسكو ماركيز فيلانويفا" Francisco Márquez Villanueva ، الذي تطرق من قبل إلى طرد الموريسكيين على أنه « إبادة جماعية صريحة، وهذا هو المعنى الحقيقي لمصطلح " الطرد " الذي يعتبر جنسه لائق جدا بحيث نستخدمه من غير وعي وذاكرة. فبين الكناية والتماهي مع المعايير الرسمية، نغفل أن المسألة تصفية شعب وثقافة اسبانية» [20]

في هذا القول ، يؤكد "فرانسيسكو ماركيز فيلانوفا" على نقطتين أساسيتين؛ أولها، أنها" تصفية للشعب"، وعلى حد قول المؤرخ البارز في متابعة خطابه، « لم يجدوا (المؤرخون) اليوم بيوتا، ولا أحدا ا يذرف دمعة على المصير الذي لاقوه »، فمن هذا المنظور، لا يمكن للمرء أن يفصل بين الجوانب العقائدية للطرد، والجانب الإنساني. والنقطة الثانية، هي اعتبار الطرد"تصفية للثقافة الاسبانية". وهذا اعتراف بوجود إسلام بشبه الجزيرة الأيبيرية قد اختفى بفعل ذلك، ووجود شكل أصيل من أشكال الحضارة الإسلامية بالمقارنة مع الشرق[21]

الواقع أن الجميع يعرف أنه زيادة على النقل الثقافي الذي حدث من شبه الجزيرة العربية إلى شبه الجزيرة الإسبانية، فرضت الأندلس بسرعة شخصيتها، مما جعل ابن حزم يكتب في قرطبة في القرن الحادي عشر، *رسالة في فضائل أهل الأندلس* (أشاد فيها بخصال وشيَّم المنطقة، بل وأعلن سمو سكانها). والواقع أن الفلسفة، إبان خلافة قرطبة، ثم ملوك الطوائف، قد عرفت طفرة كبيرة بفضل ابن طفيل، وابن باجة، وابن رشد ، وكذلك هو الحال بالنسبة للأدب والشعر والفنون الجميلة، والطب، والهندسة المعمارية، أي كل ما يمثل الحضارة الأندلسية، حضارة متعددة ودائمة التأثرات أثِرَت اسبانيا وكل أوروبا المسيحية،

انطلاقا من طليطلة، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. في عام 1609 أُجتث الإسلام الإيبيري وقُطِع فرع من الفروع الأساسية التي شكلت التاريخ الإسباني، وبذلك وضع حد لتعايش دام عدة قرون.

إبعاد الموريسكيين مجرد طرد :

ينظر بعض المؤرخين إلى مشكلة الموركيين من زاوية أخرى، ويعتبرون أن طردهم ما هو إلا طرد مثلما حدث في العديد من المرات عبر تاريخ شبه الجزيرة، وليس ذلك تقليل من أهمية الحدث، وإنما محاولة لفهم هذه الظاهرة بوضعها في سياق تاريخ اسبانيا ، إنما يبتغون من دراسة ظاهرة المنفى بمساعدة من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، للوصول إلى وجهة نظر معمقة للوقائع. لا شك أن واقع المنفى جزء لا يتجزأ من تاريخ اسبانيا، وهناك تقديرات تقول بأنه ما بين 1492، سنة طرد اليهود بإيعاز من الملوك الكاثوليك، و 1975، سنة وفاة فرانكو، اضطر نحو ثلاثة ملايين شخص إلى مغادرة اسبانيا بسبب عمليات الإخلاء ألقسري أو العنف الممارس عليهم.

واصلت الحكومات الاسبانية في سياسات الإبعاد منذ القرن السادس عشر، فبعد اليهود (1492)، والموركيين (1609)، كان دور أنصار الملك تشارلز النمسا (*austracistas*) أثناء حرب الخلافة (1701–1715) التي شهدت انتصار البوربون. ولكن قبل ذلك حدث الشيء ذاته للكاثوليك البدعيين hétérodoxes في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكذلك لليسوعيين (1767)، وللكارلايل Carlistes والمحافظين المناصرين للسياسة الاستبدادية للملك "دون كارلوس" (1788–1855) ، كما تعدى الأمر أحيانا إلى الليبراليين، حسب تقلبات الحياة السياسية في القرن التاسع عشر. وبالتالي اضطر أخيرا 500000من الجمهوريين المهزومين إلى المنفى بعد تراجعهم في فبراير 1939. درس مؤرخون كثيرون في الآونة الأخيرة عمليات الطرد باعتبارها ظاهرة متكررة في تاريخ اسبانيا .وتشير تقديرات هنري كامين Henry Kamen ، الخبير في الموضوع، إلى حدوث أربعة عشر عملية طرد واسعة في اسبانيا، استعرضها كلها في كتابه الصادر سنة 2007، تحت عنوان *Los desheredados, España y la huella del exilio* , [22]، ومعناه"المحرومون، إسبانيا، وبَصْمَة المنفى".

في العام نفسه نشر خوان كنال Juan Canal كتابا بعنوان *Exilios. Los éxodos políticos en España, siglos XV-XX* . [23] (سياسات التهجير في اسبانيا ما بين القرنين الخامس عشر والعشرين. وقبل ذلك بعام أصدر "باوتيستا فيلار" Bautista Vilar مؤلفه المعنون *La España del exilio. Las emigraciones políticas españolas en los siglos XIX y XX* (إسبانيا المنفى، الهجرات السياسية الاسبانية في القرنين التاسع والعشرين) [24] من ناحية أخرى، نشرت من نفس المنظور المجلة *La Aventura de la Historia* (مغامرة التاريخ) في عددها 116 في شهر جوان من سنة 2008 الصادرة بمدريد مجلد عنوانه *Exilio de España* (اسبانيا المنفى)، ومن بين ما احتواه مقالات "كنال

جوردي " Jordi Canal « El vaivén del XIX ») Éxodos de todos los colores »)، و "رافائيل كاراسكو" Raphäel Carrasco (« Judíos, protestantes y moriscos »)، و" روزا ماريا آلابروس " Rosa María Alabrús (« El baile de los Austracistas ») ، "إنجيل دوارتي" Ángel Duarte (« Guerra civil y diáspora ») . كجزء من المنظور نفسه، توصل الكُتاب الذين ذكرت أعمالهم، أو المسؤولين عن الأعداد الخاصة للمجلات إلى استنتاجات مماثلة، وإن كان التعبير مختلف في بعض الأحيان فالاختلافات بسيطة، إذ يشير الجميع إلى أنه منذ البداية أن هناك طائفة من الإسبان طردت طائفة اسبانية أخرى في عمليات إخلاء كان يرجى من خلالها المحافظة على التماسك الداخلي للبلاد، وبغية تقديم هوية مستقرة للبلاد التي يدَّعون تمثيلها، وما ذلك إلا موقف إقصائي متعصب، نتجت عنه خمسة قرون من الإبعاد. كانت اسبانيا طوال تاريخها، عبارة عن هويات عديدة متراكمة، منها العرقية ، و العقائدية ، والدينية أو القطرية، مما صعَّب عليها بناء هوية تضامنية، والتعايش في تجربة مشتركة، بل كان لها تطلع أسطوري لبناء ما يفترض أنه إسباني خالص.

أدّت عمليات طرد الأقليات المتكررة إلى فشل المحاولة العلمانية في خلق هوية وطنية، إذ من المؤكد أن عمليات الإخلاء هدمت هوية إسبانيا كأمة، وحرمت البلاد في كل مرة من القوى الحية، التي تمثلها النخب المثقفة الأساسية، ومنعت في كل مرة تنمية البلد، إذ أخذ المهجرون معهم جزء من هذه الهوية، فكانت إسبانيا بذلك أكبر ضحية في عمليات التهجير المتكررة التي عرفتها. وفي ذات السياق يؤكد "هنري كامين" على الجانب المتصل، معتبرا أن البلدان المضيفة أبرزت ثقافة منفى كانت فيها المستفيد الرئيسي من الهجرات الواردة على أراضيها، مثل تونس باستقبالها الموريسكيين عام 1609، والمكسيك بقدوم الجمهوريين في 1939.

تبقى الخلفية المشتركة وراء كل عمليات الإخلاء هي أن طردها للمنفى معناه أن التعايش بين مختلف الفئات الاجتماعية لم يعد ممكنا، إذ عند بلوغ هذا الحد، تسن الحكومة مراسيم تقر بأن الأقليات المتضررة لم تعد جزءا من البلاد، معتبرة وجودها خطرا، لذا تلجأ لطردها إيمانا منها بأن ذلك يحفظ البلاد من الأفكار والمعتقدات التي تحسبها غريبة وتهدد أمنها. ومن هذا المنطلق يتفق المؤرخون، في نظرتهم لظاهرة الطرد كإعادة لهياكل ظاهرة متكررة، مع علماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا الذين يدرسونها في إطار الظروف التاريخية التي تولدها، وتأكيدهم على أن الآليات تميل إلى تكرار.

الواقع أن علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا تناولوا مسألة الإخلاء، وتعليقاتهم ساعدت على إدراك ظاهرة الإبعاد في المجتمعات المختلفة، وتدعونا لرؤية هذه المشكلة باعتبارها ظاهرة متأصلة في أي مجتمع قد تحدث في أي وقت في تاريخه. في هذا الصدد يصوغ علم الأنثروبولوجيا "رينيه جيرار" René Girard هذا المبدأ العام بالقول: « تستقطب الأقليات العرقية والدينية الأغلبيات ضدها، على أساس معيار نسبي لاختيار الضحية، وهو خاص بكل مجتمع ولكنه من حيث المبدأ عابر للثقافات transculturel. وعليه لا توجد مجتمعات لا تُخضع أقلياتها، وجميع مجموعاتها غير المندمجة جيدا، أو ببساطة المتباينة،

لأشكال معينة من التمييز، إن لم يكن للاضطهاد »[26] يدعونا "رينيه جيرار" كتأكيد لطرحه، للتفكير في القوالب النمطية للاتهامات حين يقول: « للوهلة الأولى التهم متنوعة، ولكن من السهل التعرف على وحدتها... فالتي تذكر أكثر من غيرها هي دائما تلك التي تنتهك المحرمات الأكثر صرامة بالنسبة للمجتمع المعتبر»[27]، ومعناه أن ، كما حدث للمورسكيين، يشعر المجتمع بخطر على قيمه الأساسية، ويُنظَرُ إلى المُبعَد على أنه يمثل خطرا اقتصاديا، وديموغرافيا، واجتماعيا، ودينيا، وأنه بمقدوره تدمير الأسس التي تقوم عليها الأمة.

يستعمل علماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا مفهوما أساسيا في دراسة عمليات الإخلاء المتعددة عبر التاريخ، إنه مفهوم كبش فداء، عبارة تدل على أحد الطقوس القديمة لبني إسرائيل حيث يتم اختيار اثنين من الماعز، يضحى بواحد من قبل الكاهن خلال الحفل ألطقوسي، بينما يرمى بالثاني والمعروف باسم كبش فداء في الصحراء، وهو في ذلك موضوع شتائم ورجم بالحجارة. كانت اليهود تعتقد، من خلال هذا القربان، تطهير أنفسهم من الخطايا. واستعملت العبارة على مر القرون، كلما بحث شعب ما، في لحظات الأزمة، عن الجناة، وألقى بالمسؤولية عن كل شر على مجموعة معينة، ليجعل منها كبش فداء. ووظيفة هذا المفهوم تبرير عمليات الإخلاء في الذهنيات.

أصوات أخرى تتعالى بمناسبة الذكرى المئوية الرابعة

نود في ختام هذا العرض توضيح أن الاحتفال بذكرى طرد المورسكيين ليست امتيازا حكرا على الجامعة، بدليل تلك الأصوات الأخرى والكثيرة من كتاب، ورجال السياسة، والمنحدرين من الموريسكيين ذاتهم، والتي تعالت لتحية المنفيين بطريقتها كما سنرى. عبَّر رئيس الوزراء التونسي السابق هادي البكوش في الكلمة الافتتاحية للمؤتمر الدولي في تونس، الذي أشرنا إليه في بداية هذا العمل، عن وجهة نظره بشأن الطرد، فهي نظرة جديرة بالتحليل، لأن صاحبها رجل سياسي محنك، ومثقف متميز، لأنه اعتبر أن « الطرد من أكبر المآسي الإنسانية، واحدة من أكبر الجرائم التي يرتكبها الإنسان ضد أخيه الإنسان.»لإظهار كيف أن الطرد كان مأساة، قرأ المتحدث صفحة لـ"أزنار كاردونا" Aznar Cardona ، تمثل شهادة مؤثرة خاصة إذا علمنا أن صاحب القول لم يكن معروفا بتعاطفه الكبير مع الموريسكيين. تنتهي هذه الشهادة على هذه السطور : «كانوا يمشون على الأقدام، مرهقين والألم يمزق أحشاءهم، تائهين، كلهم حزنا، على محياهم علامات الغضب والخزي جياعا وعطشى...» .

أعترف ذات المسؤول أن هؤلاء المنفيين جلبوا الكثير من الفوائد لبلاده. ولكنه أشار إلى أنه في عصرنا هذا ، تحدث جرائم ضد الأقليات، وضد الإنسانية. لهذا السبب قال أنه « من المهم أن نعرف ما حدث مع للموريسكيين، لنتسلح فكريا لكي لا تحدث مثل هذه الفضائع مرة أخرى. واستشهد، بخمس حالات لتوضيح كلامه :

- مقتل خمسة ملايين يهودي على يد النازيين في أوروبا.
- في رواندا، إبادت الحكومة في سنة 1994 حوالي 800000 من طائفة التوتسي .

• في يوغوسلافيا السابقة راح المسلمون ضحية التطهير العرقي على يد الطائفة الصربية فسفكت دماء المئات من الأبرياء.

• في فلسطين، وتحديدا في قطاع غزة، هناك شعب أعزل يعاني من الجوع والفقر والتهجير، وهو ضحية أحد أقوى الجيوش في العالم.

• في سري لانكا، تريد الحكومة إبادة أقلية التاميل

في أروقة المؤتمر المنعقد بهذه المناسبة في غرناطة (13-16 مايو 2009)، وفي بعض المقاطع من الصحافة الصادرة في غرناطة، تعالت أصوات المنحدرين من أصول موريسكية تقول أن عددهم، حسب ما ورد في مقال، قد بلغ حوالي مليون شخص في المغرب الأقصى وحده، مطالبة بالمناسبة أن تعترف السلطات الرسمية الاسبانية بالمأساة التي كان المريسكيون ضحيتها ، وأن يكون ذلك في تصريح رسمي مثلما فعل من قبل الملك خوان كارلوس الأول ملك اسبانيا في 31 مارس 1992، بشأن طرد اليهود من إسبانيا عام 1492 . في تونس، تعالت أصوات أخرى، طالبت أيضا من ملك وملكة اسبانيا إعلانا يعترف بالمأساة التي عاشها الموريسكيين، ورمزيا، إلغاء أمر الطرد. وكان المتحدث باسم هذه الأصوات الدكتور التميمي، وهو أستاذ في جامعة تونس، يرأس حاليا مركز يختص بتنظيم الندوات ونشر الكتب عن الموريسكيين، الأمر الذي يجعل منه حلقة وصل هامة بين ضفتي المتوسط.

كما تجدر الإشارة إلى أن الروائيين أيضا يعيدون في أعمالهم خلق ذلك العالم الذي عاشه المورسكيون، وبالتالي يساهمون في إعادة بعث ذاكرتهم، كما فعل "كارمن بولوزا" Carmen Boullosa الذي يغوص ببطلته في غرناطة المسيحية والموريسكية، وفي بيلك الجزائر وسجونه، وفي الأحداث الكبرى التي ميزت تلك الحقبة مثل معركة ليبانتي[28]. ومن جانبها تضع "أدريانا لاسال" Adriana Lassel، في روايتها الموسومة *Lucas el Morisco* (لوقا الموريسكي) [29] ، مغامرات بطل أحداثها موريسكي من طليطلة في مناخ تلك الفترة، وتقتفي خطاه في رحلة عودته إلى اسبانيا، من أغدا إلى إشبيلية، ومن ثمة إلى العالم الجديد. ويروي لنا "إلديفونسو فالكونس" Ildefonso Falcones، في قصته *La mano de Fátima* (يد فاطمة) [30] مغامرات "هيرناندو"، المعارض بشدة للتعصب السائد في زمنه، والذي يبحث من خلاله عن حل لحياته بالتوفيق بين معتقدات دينية معينة. شهد العام 2009، إحياء الذاكرة الموريسكية، من خلال العديد من الفعاليات الثقافية، والمعارض والكتب والندوات التي بلغ عددها اثني عشرة ندوة. وهذه الجوانب العديدة من الاحتفال ما هي إلا تكريم لثلاثة ألاف شخص عانوا مأساة الطرد.

البيبلوغرافيا المعتمدة :

1. Araceli Campos, « *La expulsión de los moriscos en el espejo del tiempo* », XIV^e Congrès international d'études morisco-andalouses sur : Le 4^e centenaire de l'expulsion des morisques d'Andalousie (1609-2009), Université de Tunis, 20-23 mai 2009, (actes sous presse).

2. Augustin Redondo, « La doble visión en España de los moriscos expulsados, a través de unas cuantas relaciones de sucesos de los años 1609-1624 », España y el mundo mediterráneo a

través de las relaciones de sucesos (1500-1750), Actes du IV[e] Colloque international sur les relations de faits (Paris, 23-25 septembre 2004), Ed. Université de Salamanque, 2008, p. 271-286.

3. Santiago Talavera et Francisco J. Moreno, Juan Ripol y la expulsión de los moriscos de España, Saragosse, Institution « Fernando el Católico », Exc[ma] Diputación de Zaragoza, 2008.

4. Pour ceux qui voudraient approfondir ce thème dans l'historiographie, nous conseillons, entre autres, la lecture de trois œuvres fondamentales : Míkel de Epalza, Los moriscos antes y después de la expulsión, Madrid, MAPFRE, 1992 ; Miguel Ángel de Bunes, Los moriscos en el pensamiento histórico, Madrid, Cátedra, 1983 ; et, María Luisa Candau Chacón, Los moriscos en el espejo de tiempo, Huelva, Publicaciones Universidad de Huelva, 1998.

5. Henri Lapeyre, Géographie de l'Espagne morisque, Paris, SEVPEN, 1959

لم تكن الأرقام المقدمة خلال القرون السابقة سوى براهين استعملت في النقاش كما هو الحال في عند "بيدرو غيرناندیز دي نافاريت" Pedro Fernández de Navarrete الذي زعم في كتابه أن السبب الأول لخسارة إسبانيا من السكان يعود الى ان الملكية الاسبانية كانت مجبرة على طرد اعداء العقيدة الكاثوليكية الذي كان عددهم 3 ملايين بالنسبة للمسلمين ومليونين بالنسبة لليهود. وفي القرن الثامن عشر ذهب علماء الاقتصاد والسياسة مثل "جوفيلانوسJovellanos ، و"كومبومانيس" Campomanes، ,"كاباروس"Cabarrús ، و"آروايال" Arroyal ، وكذلك "آرتيتا"Arteta إلى المبالغة في أعداد المهجرين للتأكيد أكثر على ما يمثله طرد المورسكيين من خراب بالنسبة لإسبانيا.

6. Manuel Lomas Cortés, La expulsión de los moriscos del Reino de Aragón. Política y administración de una deportación (1609-1611), Teruel, Centro de Estudios Mudéjares, 2008.

7. La expulsión de los moriscos, ouvrage collectif, Valence, Bancaja, 1998.

8. Tulio Halperin Donghi (1980), Un conflicto nacional. Moriscos y cristianos viejos en Valencia.

9. Manuel Barrios Aguilera, La convivencia negada. Historia de los moriscos del Reino de Granada, Grenade, editorial Camares, 2008.

10. Trevor J. Dadson, Los moriscos de Villarubia de los Ojos (siglos XV-XVIII). Historia de una minoría asimilada, expulsada y reintegrada, Madrid, Iberoamericana-Vervuert, 2007.

11. Francisco J. Moreno Díaz, Los moriscos de la Mancha. Sociedad, economía y modos de la vida de una minoría en la Casilla moderna, Madrid, CSIC, 2009.

12. Manuel Barrios Aguilera et Mercedes García Arenal (éd.), ¿La historia inventada ? Los libros plúmbeos y el legado sacromontano, Grenade, El legado andalusí, 2008.

13. Il s'agit d'écrits en espagnol mais en caractères arabes.

14. Luce López Baralt, La literatura secreta de los últimos musulmanes de España, Madrid, editorial Trotta, 2009.

15. 1. Manuel Barrios Aguilera et Mercedes García Arenal (éd.), Los plomos del Sacramonte. Invención y tesoro, Universitat de València, Universidad de Granada, Universidad de Zaragoza, 2006.

a. Bernard Vincent, El río morisco, Universitat de València, Universidad de Granada, Universidad de Zaragoza, 2006.

b. Manuel Dánvila y Collado, La expulsión de los moriscos españoles, édition de Rafael Benítez Sánchez-Blanco, Grenade, 2007.

c. Tulio Halperin Donghi, Un conflicto nacional : moriscos y cristianos viejos en Valencia, Universitat de València, Universidad de Granada, Universidad de Zaragoza, 2008 (1[re] éd., Valence, 1980).

جميع هذه الأعمال تحمل ختم جامعات غرناطة ، وفالنسيا، وساراقسطة.

16. Antonio Domínguez Ortiz et Bernard Vincent, Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoría, Madrid, Biblioteca de la Revista de Occidente, 1978.

17. Ibid., p. 160. « Aunque conocemos ya las líneas generales de proceso de la expulsión, hay todavía mucho que investigar en el plano local ; deberían multiplicarse las monografías para estudiar las modalidades que revistió en cada pueblo. Los contrastes son grandes ».
18. Raphäel Carrasco, Deportados en nombre de Dios. La expulsión de los moriscos : cuarto centenario de una ignominia, Barcelona, Destino, 2009.
19. Ibid., p. 370 :« La expulsión fue la sanción de la rebeldía, la insurrección y la fidelidad al pasado ».
20. Francisco Márquez Villanueva, El problema morisco (desde otras laderas), Madrid, Libertarias, 1991, p. 8-9 : « Puro y simple genocidio que es el verdadero sentido de aquel vocablo "expulsión" de metal tan decente y que solemos usar con anestesiada inconsciencia. En medio de tanto eufemismo y de tanta identificación con los criterios oficiales, se pierde de vista la liquidación de un pueblo y de una cultura hispana ».
21. Sur ce point, voir en particulier l'ouvrage de Juan Vernet, La cultura hispanoárabe en Oriente y Occidente, Barcelona, Ariel, 1978 et celui de Luce López-Baralt, Huellas del Islam en la literatura española. De Juan Ruiz a Juan Goytisolo, Madrid, Hiperión, 1985.
22. Henry Kamen, Los desheredados, España y la huella del exilio, Madrid, Aguilar, 2007 (traduit de l'anglais).
23. Juan Canal (éd.), Exilios. Los éxodos políticos en España, siglos XV-XX, Madrid, Silex, 2007.
24. Juan Bautista Vilar, La España del exilio. Las emigraciones políticas españolas en los siglos XIX y XX, Madrid, Síntesis, 2006.
25. La Aventura de la Historia, nº 116, juin 2008, p. 55-81.
26. René Girard, Le bouc émissaire, Paris, Grasset, 1976, p. 30.
27. Ibid., p. 26.
28. Carmen Boullosa, La otra mano de Lepanto, México, Fondo de Cultura Económica, 2005.
29. Adriana Arriagada De Lassel, Lucas el morisco, o el destino de un manuscrito encontrado, Olías del Rey (Tolède), editorial Azacanes, 2005.
30. Ildefonso Falcones, La mano de Fátima, Barcelone, Grijalbo, 2009.